الرمز الديني في شعر إقبال
ديوان "الأسرار والرموز" أنموذجا

خنساء محمد أديب الجاجي*

تمهيد:

يتبوأ الشاعر العلامة محمد إقبال رحمه الله منزلة رفيعة المستوى بين شعراء الإنسانية جمعاء؛ لما في شعره من نزعة لبعث حياة الإنسان وحثه على العمل والسعي للمعالي، وترتفع منزلة إقبال أسمى وأعلى بين شعراء الإسلام خاصة في العصر الحديث، وله احترام وتبجيل في قلوب المسلمين في كل أنحاء العالم الإسلامي، وقد اهتم بشعره وبفكره عدد يصعب إحصاؤه من المفكرين والأدباء والشعراء العرب، وقد تُرجمت دواوينه كلها، وبعضها ترجم أكثر من مرة. وشعر إقبال يحفل بالرموز والإشارات، كعادة المهتمين بإحياء النفوس وبعث الهمم، وأكبر دليل على ذلك تسميته لديوانه **الأسرار والرموز** الذي هو محل دراستنا هذه. وسأتناول في هذا البحث الرمز الذي استوحاه إقبال من الدين الإسلامي وينحصر البحث في ديوانه: **الأسرار والرموز**.

الرمز :

معناه الإيحاء، أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية، والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء، بحيث تتولد المشاعر عن طريق

* محاضرة بقسم اللغة العربية، جامعة بشاور .

الإثارة النفسية، لا عن طريق التسمية والتصريح[١]. وهو وسيلة للتعبير عن أحاسيس الشاعر الشعورية واللاشعورية، أو هو --كما يرى يونج[٢]- وسيلة إدراك ما لايستطاع التعبير عنه بغيره، فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أي معادل لفظي، أما حقيقته وكنهه فهو إشارة شيء حسيّ، أو حادثة ما، أو كلمة ما، إلى شيء آخر عقلي أو باطني يختاره الشاعر كي يؤثر في نفس المتلقي[٣]. فالكلمة في الرمز طاقة إيحائية ذات إشعاع قوي، وتنبع قيمتها من ذاتها، وفي السياق[٤].

ربما كان اجتماع الجمعية الفلسفية الفرنسية في ٧ مارس سنة ١٩١٨م ومناقشتها لمفهوم الرمز "Le Symbole" من أهم ما أسميناه بالمحاولات الحديثة، وقد كان المشتركون في الاجتماع متفقين على أن الرمز "شيء حسيّ معتبر كإشارة إلى شيء معنوي لايقع تحت الحواس، وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشيئين أحست به مخيلة الرامز، ومنذ ذلك الحين أصبح واضحاً أن "الرمز" بمعناه الدقيق يتميز بأمرين :

أولاً: أنه يستلزم مستويين : مستوى الأشياء الحسية أو الصور الحسية التي تؤخذ قالباً للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، وحين يندمج المستويان في عملية الإبداع نحصل على الرمز.

ثانياً: أنه لا بد من وجود علاقة بين ذينك المستويين، هذه العلاقة التي تهب الرمز قوة التمثيل الباطنة فيه : نعني علاقة المشابهة التي لا يقصد بها التماثل في الملامح الحسية، بل يقصد بها تلك العلاقات الداخلية بين الرمز والمرموز من مثل النظام والانسجام

١- محمد غنيمي هلال، **الأدب المقارن** (بيروت: دار العودة، ١٩٨٣م) ط٢، ص٣٩٨.

٢- كارل جوستاف يونج (١٨٧٥م- ١٩٦١م).

٣- عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق، **مدخل إلى تحليل النص الأدبي** (عمّان: دار الفكر، ١٩٩٣م) ط١، ص٦٣.

٤- جميل إبراهيم أحمد كلاب، **الرمز في القصة الفلسطينية القصيرة في الأرض المحتلة (١٩٦٧-١٩٨٧م)** رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مقدمها: ، إشراف: نبيل خالد أبو علي (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥م) ص ٨.

والتناسب وما إلى ذلك من سمات أساسها تشابه الوقع النفسي في كليهما[٥].

وإذا كان أساس الرمز هو تشابه الأثر النفسي وليس المحاكاة الخارجية فإن النتيجة المباشرة لهذا أن الرمز لا "يقرر" ولا "يصف" بل "يومئ" و"يوحي" بوصفه تعبيراً غير مباشر عن النواحي النفسية وصلة بين الذات والأشياء تتولد فيها المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح، وترتيباً على هذا فإن الفرق بينه وبين الإشارة يكمن في أن الإشارة "تدل" على مشارٍ إليه "محدد" أما الرمز "فيومئ" إلى شيء ما ولكنه غير "محدد" ولا "معين". ويمكن القول _ بعد هذه الجولة _ بأن مَن نظروا إلى الرمز على المستوى اللغوي كانوا متأثرين بثقافتهم الخاصة فانتهوا "بالرمز" إلى معنى "الإشارة" اللغوية، وأن مَن نظروا إليه على المستوى النفسي لم يستطيعوا أن يلمحوا _ فيما عدا "يانج" _ من الآفاق الرحيبة التي يضمها الرمز غير "اللاشعور" بوصفه منبعاً للرموز، بل إن "الرواد الثلاثة : جوته وكانت وكولردج" حين تناولوا الرمز كانوا يتحدثون عن نظرية في فلسفة علاقة الذات بالكون أكثر مما كانوا يتحدثون عن نظرية في الإيحاء الفني[٦].

المبحث الأول: خصائص الرمز ومصادره ووظائفه وتوظيفه الديني

في سنة ١٩٠١م كتب باليزييه يحصر خصائص الرمز في ثلاث:

أولاً: أنه الطريق لملاحظة أوجه الشبه بين ما هو وجداني بالنسبة للفنان وما هو مادي.

ثانياً: أنه لايتطلب بالضرورة ذهناً على درجة عالية من التجريد.

ثالثاً: أنه تلقائي ذاتي، أساسه أن يتعقب الشاعر العلاقات الخفية بين أفكاره ومشاعره _ بوصفها عناصر ذاتية _ من ناحية، والأشياء بوصفها عناصر موضوعية من ناحية أخرى[٧].

ومن الممكن اعتبار الرمز وسيلة لتجسيد وتوصيل التجربة الفنية في صورة مكثفة ومركزة

٥- محمد فتّوح أحمد، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر** (مصر: دار المعارف، ١٩٧٧م) ص٤٠-٤١.

٦- محمد فتوّح أحمد، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر**، ص٤١.

٧- المصدر نفسه، ص٤٠، نقلاً عن: (A. G. Lehmann, The Symbolist Aesthetic in France, P.255.)

لها نفس الشحنة الشعورية التي تميز التجربة[٨]. وهو كذلك أداة من أدوات التعبير التي تهب العمل الفني الجودة والوحدة الفنية وكثافة المعنى[٩]، فإن جمال الرمز قائم _ بلا ريب _ على عمقه وعلى عظمة الفكر فيه[١٠].

والرمز يعني استشفاف الخاص (Special) من خلال الفردي (Individual) أو العام من خلال الخاص، أو الكوني من خلال العام، وفوق هذا كله استشفاف ما هو أبدي وخالد فيما هو دنيوي وموقوت[١١].

ويصبح الرمز وسيطاً بين عالم الحس وعالم الروح والمشاعر _ أي يصبح أداة للإيحاء بمعانٍ قد يصعب التعبير عنها بأي صورة أخرى كما يصبح وسيلة لاستشفاف المعاني الثابتة خلف المظاهر الحسية الزائلة أو المتغيرة[١٢]. ود. محمد مندور ينقل عن الأستاذ جورج صيدح قوله المنشور في **مجلة الآداب** في عددها يناير ١٩٥٥م: "الشعر الحديث يعتمد الرموز في الأداء ويباهي بها، وما أجمل الرمز أداة للتفاهم والإيحاء، إنه روح اللغة الناطق بما يعجز عنه لسانها، ولكن الرمز هو غير اللغز، فاللغز لا يفهم ولا يوحي، أما الرمز فإنك تفهم من إيماءاته أضعاف ما تفهم من كلمته"[١٣].

أصبح الرمز في الأدب الحديث استجابة لإحساس حضاري أو نوعاً من التداعي الحر للمعاني، فرأى الشعراء في الرمز مادة للشعر الحديث بما يثيره من صور لدى القارئ أو بما يستحضره من حكايات أو قصص أو أفكار... يكثفها بكلمات قليلة ولكنها ما تزال تحمل حين فكّها وتحليلها

٨- نهاد صليحة، **المدارس المسرحية** (مصر :الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٤م) ص ١٣.

٩- صابر عبد الدايم، **أدب المهجر دراسة تأصيلية تحليلة لأبعاد التجربة التأملية في الأدب المهجري** (مصر: دار المعارف، ١٩٩٣م) ط١، ص١٥٣.

١٠- محمد فتوح أحمد، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر**، ص٤٦.

١١- المصدر نفسه، ص٣٩، نقلاً عن: وليم يورك تندال، **الرمز الأدبي**، ص٣٩.

١٢- نهاد صليحة، **المدارس المسرحية**، ص ١٠.

١٣- محمد مندور، **الأدب ومذاهبه** (مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع) ص١٤١.

أبعاداً كثيرة. والقارئ حين يباغته الرمز فإنه يلفت انتباهه ويمتعه... ومن جهة أخرى فإنه يوسع اللغة على الشاعر والمتلقي ويبعد عنها النمطية[١٤].

ود. نجيب الكيلاني يتوسع في كلامه عن الرمز فيقول: "الرمز قد يتألق في كلمة واحدة، أو يكمن في عبارة موحية، أو يتشكل في صورة نبضة، أو ينبعث في ذكر علم من الأعلام، فنرى الأديب يذكر اسماً بعينه له تميز في جانب من الجوانب، تردد ذكره في أسطورة من الأساطير مثل "أبوللو، فينوس، أخيل، بروميثوس..." أو ورد في حدث تاريخي بارز، أو لعب دوراً عقائدياً ذا معنى خاص. فأصبح دلالة على فكرة من الأفكار، أو رمزاً على سلوك اشتهر به، وهكذا يفترش الرمز في الآداب مساحة شاسعة، سواء أكان جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم بشراً أم حدثاً، والكاتب المقتدر هو الذي يستطيع أن يجعل من الكلمة أو الجملة أو الصورة الكلية كائناً حياً، يموج بالحركة ، وتسطع بالإشعاع والحرارة، وتنطلق منها موجات خفية أو مجسدة تفعل فعلها، وتؤدي المنوط بها إزاء جهاز الاستقبال العقلي والعاطفي في الإنسان. ويرتبط الرمز بصاحبه ارتباطاً وثيقاً، فهو ينبعث من قلب الفنان الموتر، ويجعل من انبعاثه انعكاساً لعقيدة ذلك الفنان وثقافته وميوله، وهكذا يتنوع الرمز تبعاً لما يحفل به العالم النفسي والفكري لدى الأديب، ويتأثر تبعاً لذلك بوضع البيئة التي يعايشها والأحداث المعاصرة التي تعصف به، ومن هذا المنطلق يمكننا تشخيص ما يعانيه الفنان، وهل هو متشائم أم متفائل، وهل يجنح إلى الغموض أو الإبانة، وهل يتصف بالأنانية أو الإيثار والتضحية، وهل يهدف إلى البناء أم الهدم، وهل تتكون نظرته إلى الحياة والناس بالحب والتعاطف أم بالكراهية والنفور... ؟"[١٥].

المطلب الثاني: مصادر الرمز

الطبيعة مليئة بما ينهل منه الشعراء من رموز، فالشجرة رمز الثبات والعطاء، والحية رمز

١٤- أبو شريفة وقزق، **مدخل إلى تحليل النص الأدبي**، ص٦٥.

١٥- نجيب الكيلاني، **آفاق الأدب الإسلامي** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)ط١، ص٧٣-٧٤.

للشر والإغواء، وغصن الزيتون رمز للسلام... ثم هناك التراث الذي يغذي اللاشعور الجماعي إما للإنسانية ككل، أو لأفراد أمة ما دون غيرهم.

واللاشعور الجماعي كما يقرره يانج رواسب باقية في النفس منذ آلاف السنين على شكل أساطير وخرافات تمثل الموقف النفسي الأزلي للإنسان إزاء أحداث الطبيعة ومجرياتها، وقد انتقلت إلينا هذه الآثار مجتمعة فيما يسمى باللاشعور الجمعي(١٦).

إن أهم وأغنى ما يستطيعه التراث بالنسبة لشعرنا الحديث ليس أن يصبح واجهة منطوقة للعمل الفني تضاف إليه من الخارج رغبة في التدليل على ثقافة الشاعر وإلمامه بالتيارات العصرية في الأدب والفن، بل أن يحسه الشاعر، ويؤمن به، بحيث يغدو جزءاً من صميم تجربته الشعرية، وعبيراً من الماضي يصافحك حين تطالع القصيدة فلا تدري من أين مأتاه، ذلك ما يمكن تسميته "التفكير بالتراث"(١٧). يقول إليوت: "خير أجزاء القصيدة، بل وأكثرها تميزاً، تلك التي تؤكد فيها آثار أسلافه الموتى من الشعراء خلودها في أقوى صورة". وذلك – فيما يرى – هو مفهوم الحس التاريخي الذي ينبغي أن يتزود به الشاعر، والذي لايتضمن مضى الماضي فحسب، بل إدراك حاضره كذلك، فهو حس بما وراء الزمن، وبالزمن، وبهما معاً متحدين(١٨).

والتراث حسبما فهمه ومارسه الشاعر الحديث هو التراث الشعبي كما يتمثل في حكايات السمر والتقاليد المحلية والنماذج الشعبية، وهو كالأسطورة مظهر من مظاهر اللاشعور الجماعي وانعكاس له، وتأتي أهميته الفنية من قدرته على التحدث إلى الجماعة بما يعيش في وجدانها العام، إذ يلمس وتراً مشتركاً ما تكاد تحركه يد الشاعر حتى تهتز له مشاعر الآخرين(١٩). وللتراث جانبان: جانب الدلالة الحقيقية التي يشير إليها ظاهر النص، وجانب رمزي يشف عنه ذلك النص إذا نظر

١٦- محمد فتوح أحمد، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر**، ص ٣١٥.

١٧- المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

١٨- المصدر نفسه، ص٣٢٣.

١٩- المصدر نفسه، ص٣٢٤.

إليه في ضوء علاقته ببقية القصيدة، ثم في ضوء علاقته ببقية نتاج الشاعر، وأخيراً في ضوء علاقته بظروف حياته ومعالم شخصيته وأطوارها بشكل عام[٢٠].

وعناصر التراث ومعطياته لها القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد، حيث تعيش هذه المعطيات في وجدانات الناس وأعماقهم، تحف بها هالة من القداسة والإكبار، لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري الوجداني والنفسي، ومن ثم فإن الشاعر حين يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية والشعورية لرؤيته الشعرية عبر جسور من معطيات التراث، فإنه يتوسل إلى ذلك بأكثر الوسائل فعالية وقدرة على التأثير والنفاذ. هذا بالإضافة إلى أن استخدام الرموز التراثية يضفي على العمل الشعري عراقة وأصالة، ويمثل نوعاً من امتداد الماضي في الحاضر، وتغلغل جذور الحاضر في تربة الماضي الخصبة المعطاء، كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعاً من الشمول والكلية، حيث يجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتعانق في إطارها الماضي مع الحاضر[٢١]. واستغلال الموروث ينبغي أن يخضع لما يخضع له استغلال الأسطورة من مقاييس، **أولها**: أن تكون ثمة علاقة عضوية بينه وبين القصيدة، بأن تكون الحاجة إليه نابعة من داخل الموقف الشعري ذاته... **وثانيها**: أن يكون ثمة صلة سابقة من نوع ما بين المتلقي والرمز التراثي، بأن لا يكون غريباً عنه غربة مطلقة، حتى إذا ما ألمح إليه الشاعر أيقظ في وجدان المتلقي هالة من الذكريات والمعاني المرتبطة به[٢٢].

المطلب الثالث: وظائف الرمز

الرمز وسيلة لتجسيد وتوصيل التجربة الفنية في صورة مكثفة ومركزة لها نفس الشحنة الشعورية التي تميز التجربة[٢٣]. والرمز أقدر على الكشف عن الانطباعات المرهفة والعالم الكامن

٢٠- المصدر نفسه، ص٣٢٥.

٢١- محمد فؤاد السلطان، **الرموز التاريخية والدينية والأسطورية في شعر محمود درويش**، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية) المجلد الرابع عشر، العدد الأول، ص١-٣٦، يناير/ ٢٠١٠م.

٢٢- محمد فتّوح أحمد، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر**، ص٣٢٦.

٢٣- نهاد صليحة، **المدارس المسرحية**، ص١٢.

خلف الواقع والحقيقة، والرمز نوع من المعادل الموضوعي، وهو يوحي بالحالة ولا يصرح بها، ويثير الصورة ثم يتركها تكتمل من تلقاء ذاتها كما تتسع الدوائر في الماء، وذلك عن طريق الفعالية الذهنية للمتلقي، إن وظيفة الرمز الإيحاء بالحالة لا التصريح بها والكشف التدريجي عن الحالة المزاجية لا الإفضاء بها جملة واحدة، وهو وسيلة قادرة على الإشعاع الطيفي كالآثار الموسيقية والتشكيلية، ومنه يصبح القارئ مشاركاً للمبدع في إنجاز عملية الخلق الفني، والرمز أقدر على التعبير عن المشاعر المبهمة والأحلام والنزوعات الخفية العميقة وترجمة السر الخفي في النفس الإنسانية، وهذه هي المملكة الحقيقية للشعر، ولا تستطيع اللغة العادية التعبير عنها تماماً كما يستطيع الرمز الذي يمكنه الكشف عن أدق اللوينات النفسية وفروقها الخفية[٢٤]. ويفتح الرمز ذاكرة القارئ على مخزون روحي ووجداني شديد الكثافة والترابط بعالمه[٢٥].

المطلب الرابع: توظيف الرمز الديني

إن توظيف الرموز الدينية في الخطاب الشعري تعطي للنص دلالات خصبة، وتحيله على موروث حضاري زاخر، واستدعاؤها في اللحظة الراهنة يمثل التمسك بالماضي المليء بالصور المشرقة لأمتنا من أجل معالجة الحاضر وانكساراته[٢٦].

ويلعب عالم العقائد والغيب دوراً كبيراً في الصور الرمزية، وفيها يختلط الشعور باللاشعور، وعالم الأشباح والأرواح بعالم الناس، للإيحاء بمعالم نفسية دقيقة متأرجحة بين الإبانة

٢٤- عبد الرزاق الأصفر، **المذاهب الأدبية عند الغرب – مع ترجمات ونصوص لأبرز أعلامها** (دمشق: من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م)ص٨٦-٨٧.

٢٥- علي جعفر العلاق، **في حداثة النص الشعري** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠م) ص٧٨.

٢٦- السحمدي بركاتي، المشرف : د. معمر حجيج، **الرمز التاريخي ودلالته في شعر عز الدين ميهوبي**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة العقيد الحاج لخضر- باتنة (الجزائر: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ٢٠٠٨- ٢٠٠٩م) ص ١٠٢.

والخفاء، يلقي الشاعر عليها أضواء تنفذ إلى جوانب منها ولا تستوعبها[٢٧].

فلسفة إقبال وتوظيفه للرمز الديني:

يرى الأستاذ سيد عبد الواحد أن النزعة العامة لإقبال هي في اتجاه الرمزية[٢٨]. ويرى د. يوسف حسين أن كمال شعر إقبال كان في رمزيته. ورمزية إقبال لا تعطي شكلاً أو جوهراً لكن امتزاج وتفتح الحياة واضح فيها، فهي لاتسمي الأشياء بل تخلق غلافها الجوي أو أشعتها، وجمال رمزية إقبال يكمن أساساً في حقيقة أنها تختلف تركيباً عن تلك التي استخدمها الشعراء الآخرون في الأردية والفارسية، فالرمزية عند إقبال نراها في : إبراهيم ونمرود، موسى وفرعون، حسين ويزيد، فهي فقط قصص تراجيدية عرضية للاجتهاد الديني في تاريخ الإنسان، لكنها عند إقبال تدل على النضال الأبدي بين الخير والشر، فرهاد وبروز قصة تدل على المنافسة في الحب لكنها عند إقبال تعبر عن الحب والعقل. محمود وإياز تدل على الملك وخادمه المحبوب لكنها عند إقبال تعبر عن العلاقة بين العاصمة وعمالها... وهكذا...[٢٩] وإن إقبال مع كونه شاعراً وأديباً كان مصلحاً شجاعاً جريئاً، وكان هدفه من شعره ونثره خلق الثورة الإسلامية في حياة مسلمي الهند العلمية، والخلقية، والملّية خاصة، وفي حياة جميع المسلمين عامة[٣٠].

وإقبال يشرح سبب اختياره للصقر كرمز للسمو والكرامة والرفعة والسعي الكريم المترفع عن الدنايا، فيقول: إن اختياره الصقر يرجع إلى تواجد جميع أوصافه في الفقير الزاهد، وليس

٢٧- محمد غنيمي هلال، **الأدب المقارن**، ص٤٠٢.

٢٨- سمير عبد الحميد إبراهيم، **إقبال وديوان أرمغان حجاز، عصره، فكره، أدبه، ترجمة وتحليل الديوان** (لاهور: المكتبة العلمية، ١٩٧٦م) ط١، ص٨٠.

٢٩- المصدر نفسه، ص٨٠.

٣٠- من رسالة قُدمت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من قبل الباحث : فيض الله دار بعنوان : **"أبو العلاء المعري والعلامة محمد إقبال: دراسة مقارنة أدبية نقدية"**، المشرف: خالق داد ملك، لاهور، جامعة البنجاب، قسم اللغة العربية، الكلية الشرقية، ٢٠٠٥-٢٠١٠م، ص٥٢١.

المقصود منه التشبيه في الشعر فحسب، فمثلاً:

إنه طائر غيور لا يأكل تلك الفريسة التي يصطادها غيره، بل إنه يصطاد بنفسه ويأكل.

إنه حر لا يستوطن ولا يستقر في مكان معين.

إنه سريع في حركته ورفيع في طيرانه.

يحب الخلوة.

بصره قوي ودقيق، يقدر أن ينظر إلى فريسته من بعيد جداً[٣١].

وهو يقول: "إن الكلام بالرمز يعتبر أحسن الكلام، لذلك نرى أن أحاديث الرجال العظام المتصوفين لا تخلو من الرموز والإشارات"[٣٢].

عندما قمتُ بدراسة الرمز الديني في ديوان **الأسرار والرموز** الذي هو نسخة ترجمها د. عبد الوهاب عزام وراجعها وحققها د. سمير عبد الحميد إبراهيم عن ديواني **أسرار خودي** و **رموز بي خودي**، رأيت الشاعر رحمه الله ينهل من التراث الإسلامي وينبشه باحثاً عن ما يبعث الحياة في الأمة المسلمة، وهو في بحثه ذاك كان شديد الانتقاء، متطلباً، ولم يكن يكتفي إلا بالعظيم من هذه الشخوص والغني من الأشياء التي استطاعت براعته أن تُوظفها توظيفاً فعالاً في استجلاب منظومات متداعية في فكر المسلم أياً كان موطنه.

والشاعر في هذا الديوان كان هدفه الأول والأخير هو استنهاض الأمة الإسلامية من رقادها، وبعثها من سباتها، وتحريكها من كسلها، ولم يدخر وسعاً في ديوانه هذا في ذلك المجال. وكل رمز سأتناوله بالبحث هنا يتماشى بقوة مع ما ذكرتُه من هذا الهدف العظيم الذي كان الشاعر دائماً يصرح بأنه الداعي الوحيد له في ذلك الوقت، وهو يقول في هذا الديوان:

٣١- انظر: رئيس أحمد جعفري الندوي، **إقبال اور سياست ملى** (لاهور: فالكن برنتنغ بريس، ١٩٨١م) ط٢، ص٧١.

٣٢- صلاح الدين محمد شمس الدين الندوي، **الاتجاه الإسلامي في شعر محمد إقبال** (بومباى: الدار السلفية، ١٩٩١م) ط١، ص ٣٧٧. نقلاً عن **"بيام مشرق"**، ص١٢٨.

كـــل مـــا نملـــك مـــن هـــذي الحـــواس كـــل عضـــو فيـــه للعـــيش الـــتماس
كـــــل فكـــــر وخيـــــال واعتبـــــار كـــــل حـــــسّ وشـــــعور وادّكـــــار
هـــــي آلات الحيـــــاة الجاهـــــدة حـــين تمضـــي في وغاهـــا صـــامدة(٣٣).

المبحث الثاني: الرمز الديني عند إقبال

موسى عليه السلام: الرمز الذي يأخذ المرتبة الأولى في اهتمام الشاعر في هذا الديوان هو النبي موسى عليه السلام، وموسى عند إقبال هو الثائر المحرك الفعال الباعث لهمة قومه، وموسى ترتبط به رموز أخرى فهناك عصاه، وهناك يده البيضاء، وهناك جبل الطور وصحراء سيناء حيث كان تجلي الرب تبارك وتعالى له واختياره لاضطلاعه بمسؤولية استنقاذ بني إسرائيل من ظلم فرعون، وهناك فرعون وهو المقابل لموسى في رمزيته، فلم يعرف الموحدون فرعوناً واحداً عاصر موسى عليه السلام فقط، بل هناك فراعنة مستمرون على مدى الدهور لا ينتهون مادام الصراع بين الحق والشر قائماً، وهناك **الخضر** عليه السلام رمز للعلم الخاص. ونرى الشاعر يقول:

أنـــا في يـــأس مـــن الصـــحب القـــديم مشـــعل طـــوري ليغشـــاه كلـــيم(٣٤).

يجبرنا هذا البيت على التوقف قليلاً للعودة إلى البيئة التي كان يعيش فيها إقبال ود. محمد حسين هيكل يصفها بقوله: كان يعيش في الهند حيث يختلط المسلمون بغيرهم من الكثرة الهندية التي تدين بالبرهمية أو البوذية أو الهندوسية أو غير ذلك من مذاهب الهند وعقائدها. وكان يظله في محيطه الإسلامي جو من التصوف الفارسي يتأثر بمقدار غير قليل بالفكرة الهندية الدينية التي ترى الحياة عبئاً ثقيلاً، وترى العمل مصدر شقائها وآلامها، وتؤمن بأن رغباتنا هي علة بؤسنا ومتاعبنا، وبأنا لو سمونا فوق الرغبة وتخلصنا منها وعزفنا عن العمل وأخلدنا إلى السكينة المطلقة استطعنا أن نبلغ

٣٣- **ديوان الأسرار والرموز للشاعر الفيلسوف محمد إقبال**، ترجمه نظماً: د. عبد الوهاب عزام، درسه وحققه وأكمل ترجمته نثراً: سمير عبد الحميد إبراهيم (لاهور: المكتبة العلمية، ١٩٧٨م) ط١، ص١٨.

٣٤- المصدر نفسه، ص٧.

مرتبة الزفانا الهندية أو مرتبة الإشراق الصوفي[٣٥]. فالناس حوله مسلمون وغير مسلمين مستكينون للدعة والكسل وهو في يأسه من هؤلاء يشعل طوره وينتظر الكليم الذي يقوم بما قام به موسى عليه السلام من بعث الهمة في قومه. فالطور مشعل فكري يهدي الحائرين وينتظر من يقتبس منه لينقل نوره لمن يعيش في ظلام، ويوافق هذا البيت قول الشاعر في قصيدة أخرى:

كم ترى نفسك طيناً قد حُقِر شعلةَ الطور من الطين أثِرْ[٣٦].

وجبل الطور لم يكن فقط عند الشاعر مشعل كما ذكره في البيت السابق بل هو رمز ووسيلة لتجلي الإبداع الفكري فهو يقول:

سحرَ الفكرَ تجلّيه وراعْ فإذا لي شجر الطور يراعْ[٣٧].

فشجر الطور هنا قلم يسطر فيه من تجليات فكره وسحره.

ويقول: مطلع الحسن ضمير الشاعر طوره صبح الجمال الباهر[٣٨].

الطور هنا رمز للإشراق والجمال في الصباح. والصباح بما يبعث ذكره فينا من تداعيات لمعاني الحياة بعد الموت، والضياء بعد انحسار الظلام، والنصر بعد تغلب الظلم.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه بنظر الشاعر هو من أنار لنا "طورنا" في قوله:

ذا "أمنُّ الناسِ" فينا مَن جلا طورنا منه الكليم الأولا[٣٩].

في إشارة منه إلى الحديث الشريف: "إنَّ مِنْ أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر"[٤٠].

٣٥- ظهور أحمد أظهر، **إقبال العرب على دراسات إقبال** (لاهور: المكتبة العلمية، ١٩٧٧م) ط١، ص٨-٩.

٣٦- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص٤٧.

٣٧- المصدر نفسه، ص١٢.

٣٨- المصدر نفسه، ص٣٢.

٣٩- المصدر نفسه، ص١٤٠.

٤٠- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث: ٣٦٩١.

وعندما يذكر الشاعر إمامه ومعلمه جلال الدين الرومي يقول:

هـــو موســـى دون طـــور يشـــرق مـادرى مـا العشـق أو مـن يعشـق[٤١] .

فهو يرى أن المسلم ليس بالضرورة محتاجاً دائماً لطور يشرق له، بل هو نفسه قادر على التأثير والعمل المثمر ولو لم يكن يساعده أحد، فلم يكن الرومي بنظره ينتظر مساعدة أو عوناً ليبدأ سيره في طريق استنهاض همم قومه.

والطور جبل بالغ العلو والسمو والشاعر يصف الحجر الأسود بقوله:

جـــاوز الطـــورَ عـــلاء لاجَـــرم ورجـــت تقبيلـــه كـــل الأمـــم[٤٢].

فالحجر الأسود يتجاوز بقداسته الطور ويعلوه، فالطور الآن رمز للعلو والسمو بعد أن رأيناه سابقاً رمزاً للإشراق والهدى.

وصحراء سيناء في نظر الشاعر هي رمز لما يحتوي على السكون والهدوء والقدرة على مراقبة الذات والتفكر، وفيها جبل الطور الذي يقتبس منه من أراد الهدى وفي ذلك إشارة إلى قول موسى عليه السلام لأهله: ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾[٤٣] ويقول الشاعر:

إن تكـــنْ صـــحراء فاطلـــب لجّتـــي أو تكـــن ســـيناء فـــاقبس شـــعلتي[٤٤].

يتناول إقبال قضية أن الذات الإنسانية تسفل وتهون إن استمرأت السؤال والاستجداء، ونسيت العمل والجهد وهو يشنّع على مَنْ ركن إلى الذل والدعة والراحة وترك العمل والنشاط والحركة، وهذا ينتشر بين بعض طرق الصوفية المتواكلة التي ترضى بأن تكون اليد السفلى معتذرة

٤١- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص ٥٩.

٤٢- المصدر نفسه، ص ٥١.

٤٣- سورة طه، الآية: ١٠.

٤٤- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص٨.

بأنها مشغولة بالذكر وتزكية النفس بالبعد عن الانشغال بالدنيا، ويقول:

فـــرّق الـــذات ســـؤال واجتـــداء فبـــدت ســـيناؤها دون ضـــياء(٤٥).

فهذه النفس التي أودع الله بها من القدرة والمهارات تُدفن وتُركن ويُستعاض عنها بالسؤال ومد يد التوسل للناس.

لكن في مجال آخر يناجي الشاعر ربه فيقول :

أيـــن ياربـــاه في الـــدنيا النـــديم نخـــل ســـيناء أنـــا، أيـــن الكلـــيم؟(٤٦).

فهو ينظر حوله في دنياه فلا يرى مَنْ يشاركه همه ولوعته وحرقة قلبه على تخلف قومه ولا يجد مَنْ يستمع إلى حديث قلبه من الأصحاب الحميمين، وهو يرى نفسه نخل سيناء لما في نخل سيناء من رمزية للخير العميم والبركة التي خصها الله تعالى بها، والشاعر بما فيه من فكر عميق وقدرة على إفادة أمته إلا أن قدرته ناقصة وعاجزة عن تحرك قومه فهو بحاجة شديدة للكليم الذي يقوم بما عجز عنه الشاعر من استنهاض همة قومه.

أما عندما تتحد الأمة جمعاء فتشرق سيناء:

وحـــدة القلـــب قـــوام الأمـــة أشرقـــت ســـيناء مـــن ذي الجلـــوة(٤٧).

وإقبال في بيانه أن كمال سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي يقول:

شرعـــة الحـــق نظـــام الأمـــم ومـــن الـــنظم دوام الأمـــم

إن فيـــه الأيـــدَ يـــامن أخلصـــا اليـــدُ البيضـــاء فيـــه والعصـــا(٤٨).

فاليد البيضاء والعصا هنا رمز للقوة المادية المنبعثة من اجتماع الأمة على تحكيم شرع الله في

٤٥- المصدر نفسه، ص٢٣.

٤٦- المصدر نفسه، ص٦٩.

٤٧- المصدر نفسه، ص٨٨.

٤٨- المصدر نفسه، ص١١٥.

كافة شؤون حياتها، فهي الأيد والقدرة والقوة بيد من أخلص دينه وحياته لله عزوجل. كما كانت لليد والعصا عند موسى عليه السلام قدرة وقوة عظيمة معجزة تحدى بهما فرعون.

والعصا تغدو حية تسعى لتلتهم ما قدمه سحرة فرعون ليسحروا به أعين الناس، وتكون أداة فعالة لشق طريق اليبس في البحر لتنقذ بني إسرائيل، وقد تكون بعد ذلك ما يضرب بها موسى الحجر فينفلق في سخاء بالماء بعدد قبائل بني إسرائيل، وقد تكون ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[٤٩] فالعصا ليست هنا مجرد قطعة من خشب بل هي رمز للقوة والقدرة والفعل المعطاء المفيد المثمر.

وفي المعنى نفسه يقول الشاعر:

مَنْ يمسّك بعصاً من (لا إله) فلتحطم طِلسم الخوف يداه[٥٠].

فشهادة أن (لا إله إلا الله) هي العصا والقوة التي سيحطم المسلم بها طلسم الخوف عنده، كما حطم موسى عليه السلام بالعصا ما كاده السحرة من خدع وتمويه، استخدموه في تخويف الناس وتعبيدهم لفرعون.

ود. ظهور أحمد أظهر نقل لنا مجملاً لفكرة إقبال في قوله: "لو أن موسى عليه السلام موجود ولاعصا معه، فلا أساس حينئذ لعمله" ويكمل إقبال فكرته ويقول: "ولو ولد الكليم "موسى" مرة ثانية فمن أين له بالعصا؟" فموسى رمز للقوة الروحية والعصا رمز للقوة المادية، والعصا هذه الأيام في يد الجيوش إلا أن هذه العصا لايمكنها أن تجعل من حاملها (كليماً) آخر[٥١].

تحت عنوان النيابة الإلهية يصف الشاعر النائب عن الحق تعالى في الأرض، وهو المسلم الحق، خليفة الله في أرضه، الذي يرى الحياة هي في اتباع أمر الله في كل شؤون حياته، فيصف هذا

٤٩- سورة طه، الآية: ١٨.

٥٠- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص٣٩.

٥١- ظهور أحمد أظهر، **إقبال العرب على دراسات إقبال**، ص١١١.

الإنسان بقوله:

إن خطمت الصعب قدتَ العالما نافذ الأمر عليه حكما
مشرقاً في الأرض مادار الفلك فترى الملك الذي يخلد لك
نائب الحق على الأرض سعيد حكمه في الكون خلد لا يبيد.

ثم يقول:

سيره يخضّر في بيدائه كم كليم هام في سينائه![٥٢] .

ومَن أفضل خليفة في الأرض مِن رسول الله ونبيه؟!، فيقول الشاعر تحت عنوان : إن الملة تنشأ من اختلاط الأفراد وأن تكميل تربيتها بالنبوة:

سيره يعطي التراب البصرا فإذا الذرة سيناء ترى[٥٣].

فالذرة ترى على ضآلتها طور سيناء، والذرة التي لا ترى إلا في نور الشمس ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات وينير الظلم فترى الذرة طور سيناء[٥٤].

والكليم وكفه التي يضرب بها الحجر فيتفجر بالماء العذب لقومه يوظفه الشاعر حين يحدثنا عن مقولة الشافعي رحمه الله: "الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك". فيقول:

نضّرَ الله تراب الشافعي سحر الألباب هذا الألمعي
فكره قد صاد نجماً لامعاً حين سمّى الوقت سيفاً قاطعاً
فات خوفاً ورجاءً صاحبه كفه كف كليم، ضاربُه
تُغدق الصخرة من ضربته ويغيض البحر من صولته

٥٢- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص ٤١-٤٢.
٥٣- المصدر نفسه، ص ٨٦.
٥٤- المصدر نفسه، في الهامش تعليق وشرح من المترجم، ص ٨٦.

كـــان هـــذا الســـيف في كـــف الكلـــيم فشـــأى التـــدبيرَ بـــالعزم الصـــميم
شـــق صـــدر البحـــر لمـــعَ القـــبس صـــيّر القلـــزُم مثـــل اليَـــبَسِ(٥٥).

وموسى وفرعون في قاموس الشاعر ليسا شخصين محددين ذُكرا لنا لنتوقف عند قصتهما فقط، بل هما رمزان لكل داعٍ إلى الخير والعمل، ولكل ظالم متألّه، فيقول تحت عنوان : "في معنى أن الخوف والحزن واليأس أمهات الخبائث وقاطعات طريق الحياة، وأن في التوحيد دواء هذه العلل الخبيثة":

حـــرِّرِ الـــنفسَ مـــن الغـــم ودَعْ إن عرفـــت الله، أغـــلال الطمـــعْ
قـــوة الايـــمان تحيـــي فـــاعلمنْ وِردَ "لاخـــوفٌ علـــيهم" فـــاقرأنْ
قلبـــه مـــن "لاتخـــف" قلـــبٌ ســـليمْ حـــين يمـــضي نحـــو فرعـــونٍ كلـــيمْ
خـــوفُ غـــير الله قَتْـــل العمـــلِ وهـــو للأحيـــاء قطـــع السُـــبُلِ(٥٦).

وننتقل إلى شخصية الخضر عليه السلام التي وظفها الشاعر كرمز للعلم والعقل ولمن يملك الخلود في معرفته بهاء الحياة كما يقال. فتحت عنوان "في بيان أن حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها" يقول:

سِرُّ عـــيشٍ في طِـــلابٍ مُضـــمَر أصـــله في أمـــل مســـتترُ
أحـــي في قلبـــك هـــذا الأمـــلا لا يَحُـــلْ طينُـــكَ قـــبراً مُهمـــلا
يخفـــق القلـــب بـــه بـــين الصـــدورْ هـــو في صـــدرك مـــرآة تنـــير
يهـــبُ الـــتربَ جناحـــاً يصـــعد ولموســـى العقـــلِ خِضـــراً يُرشِـــد(٥٧).

وكما ذكرتُ قبل قليل أن الشاعر يرى أن السؤال والاستجداء ينقص من إنسانية السائل وكرامته، فهو يقول تحت عنوان "في بيان أن الذات تضعف بالسؤال" :

٥٥- المصدر نفسه، ص ٦٣.
٥٦- المصدر نفسه، ص ٩٠.
٥٧- المصدر نفسه، ص ١٦.

مرحبـــــاً بالظـــــامئ الضـــــحيان لا يســـــأل الخِـــــضر شرابـــــاً في الفـــــلا
بســـــؤال النـــــاس لم يُنـــــد الجبـــــين ذاكـــــم الإنســـــان، لا مـــــاء وطـــــين
تحـــت هـــذي الشـــمس يمـــضي ذا الفتـــى عـــاليَ الـــرأس كـــسَرْو قـــد عتـــا[٥٨].

ويقصد بـ "شراباً" هنا أي ماء الحياة التي يزعم بعض الناس أن الخضر عليه السلام يملك هذا الماء الذي يهب الحياة الخالدة لمن يشربه. ويقول في إشارة لهذا الأمر:

خَـــــضِرٌ في ليلـــــه مـــــاء الحيـــــاه تُزهـــر الأكـــوانُ مـــن مـــاء بُكـــاه[٥٩].

إبراهيم عليه السلام: إبراهيم عليه السلام برؤية الشاعر الرمزية هو رمز للذات الفاعلة، فهو رمز للصبر والجلد على التوحيد ومقارنته بما يُعبد من دون الله من شمس وقمر وكواكب وغيرها... وهو رمز للقوة الروحية التي أطفأت النار المادية، وهو مقدم القربان بذبح ابنه الوحيد، وهو الولد الصالح لوالد كافر، يدعوه ويرجو له الهدى لآخر لحظة من حياته بل وتعداه للدعاء له بعد موته، ومن توابع رمزية إبراهيم يأتينا آزر رمز الجهل والضلال، والسعي للصد عن سبيل الله، وهناك عصا إبراهيم أو فأسه التي حطم بها الأصنام، والنار التي أوقدها المشركون لحرقه التي أضحت برداً وسلاماً عليه، وسكينه التي وضعها على حلق ابنه يفوز بها في الاختبار الذي وقع عليه.

وعن رمز النار الفاعلة يقول الشاعر تحت عنوان "في بيان أن نظام العالم من الذاتية وأن تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلا باستحكامها":

ألـــفُ إبـــرهيم في النـــار اغتـــدى لـــــسراج يُرتجـــى مـــن أحمـــدا
همهـــا الأعـــمال فهـــي الفاعـــلُ وهـــيَ العلّـــة وهـــيَ القابـــل
ثـــورة فيهـــا وإجفـــال، ونـــور واحـــتراق واختفـــاء وظهـــور[٦٠].

٥٨- المصدر نفسه، ص ٢٤.
٥٩- المصدر نفسه، ص٣٣.
٦٠- المصدر نفسه، ص١٤.

وينادي قومه في قصيدة أخرى بقوله:

قـــم فشـــيّد عالمـــاً دون مثيـــل وخُـــض النـــار وأقـــدم كالخليـــل.

ثم في القصيدة نفسها يقول:

حبـــذا عشـــقٌ بغـــى الأمـــرَ الجليـــلْ وجنـــى في النـــار ورداً كالخليـــل[٦١].

وفي قصيدة أخرى يقول:

تجمـــــع الحكمـــــةَ زاداً بَـــــردا فســـــحاب الفكـــــر يهمـــــي بَـــــردا

مـــــن هشـــــيم فيـــــك أذكِ اللهبـــــا مـــــن تـــــراب فيـــــك أطلِـــــع شُـــــهُبا

مـــــن لهيـــــب القلـــــب عِلـــــمُ الكامـــــل مقصـــــدُ الإســـــلام تـــــرك الآفـــــل

صـــــدَّ إبـــــراهيم عـــــما يأفُـــــلُ فحوتـــــه كالجنـــــان الشُـــــعَل[٦٢].

وفي وصفه للأمة المحمدية يقول:

فلإبـــــراهيم فينـــــا فطـــــرة وإلى المـــــولى لـــــدينا نســـــبة

مـــــن لهيـــــب قـــــد جنينـــــا زهَـــــرا نـــــار نمـــــرودٍ رددنـــــا كـــــوثرا

كـــــل نـــــار يوقِـــــدُ الـــــدهر لنـــــا زهـــــراتٌ حـــــين تـــــأتي روضَـــــنا[٦٣].

وآزر رمز للضلال والدعوة إلى الضلال، ويقول الشاعر متحدثاً عن مكيافيلي مؤلف كتاب الأمير صاحب مقولة "الغاية تبرر الوسيلة":

ذا الفُلورنـــــسيُّ عبـــــدُ الـــــوثن كحلـــــه أودى بنـــــور الأعـــــين

خـــــطّ للأمـــــلاك سِـــــفراً منكـــــرا وبـــــذورَ الحـــــرب فينـــــا بـــــذرا

٦١- المصدر نفسه، ص٤٤.

٦٢- المصدر نفسه، ص٦٠.

٦٣- المصدر نفسه، ص١١٠.

مـــــزّق الحـــــقَّ بحـــــدّ القلـــــم فطـــــرةٌ تـــــؤثر عـــــيش الظُلَـــــمِ
آزرُ العـــــــصر، بـــــــدا تزويـــــــرُه خطـــــةً بِـــــدعاً جـــــلا تفكـــــيره
جعـــــل المُلـــــكَ إلاهـــــا دينُـــــه كـــــلُّ قـــــبح نالـــــه تحســـــينُه
جعـــــل النفـــــع عيـــــار الـــــذمَم حيـــــنما خـــــرّ لهـــــذا الصـــــنمِ
صـــــارت الحيلـــــةُ فنّـــــاً مُحكـــــما ونـــــما الباطـــــل ممـــــا علّـــــما[٦٤].

ويقول الشاعر في قصيدة تحت عنوان "في بيان أن الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد، ومقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره":

يعشـــــق الأصـــــنامَ عقـــــلُ الأمـــــم ناحـــــــتٌ أو عابـــــــدٌ للصـــــــنم
هـــــو أحيـــــا سُـــــنّةً مـــــن آزرا محـــــدِثاً فيهـــــا إلاهـــــاً للـــــورى
اســـــمه لـــــون ودار ونســـــب هـــــو مـــــن ســـــفك دمـــــاء في طـــــربْ
وعـــــلى أقـــــدام هـــــذا الصـــــنم ذُبـــــح الإنســـــان ذبـــــح الغـــــنم
أيهـــا الشـــارب مـــن كـــاس الخليـــلْ يـــاحمِيَّ الـــنفس مـــن طـــاس الخليـــل
ســـيفَ "لاموجـــود إلا هـــوْ" خُـــذِ وبـــه الأصـــنام هـــذي فاجـــذُذِ
في ظـــــلام الـــــدهر أشرِق للمـــــلا وانـــــشرن حقـــــاً عليـــــك اكـــــتملا[٦٥].

ويختم الشاعر ديوانه بقصيدة بعنوان " شكوى المصنف إلى من أرسل رحمة للعالمين" فيقول:

همـــــتُ حينـــــاً بـــــذواتِ الحـــــوَر وتعشـــــــــقتُ ذواتِ الطُـــــــــرَرِ
وعـــــلى الـــــراح صـــــحبت الغانيـــــه حـــــين أطفـــــأتُ سراج العافيـــــه

٦٤- المصدر نفسه، ص١٠٦.
٦٥- المصدر نفسه، ص١٢٨.

وأحاطت بَيْدري نارُ البُروقْ وغزا قلبيَ قُطّاع الطريقْ
وبروحي لم يزَل هذا العُقار وبكيسي لم يزل هذا النُّضارْ
لبس الزُنّارَ عقلي الآزَريّ وغزا روحي بالنقش الفريّ
في إسار الشك أمضيت سنينْ وهو في رأسي مقيم لا يَبين
أحرفاً ما نلتُ من علم اليقين ومن الحكمة في الريب رهين[٦٦].

ويقول في قصيدته بعنوان "ضبط النفس":

كل من موطنه إقليم "لا" من قيود الزوج والوُلد خلا
مُعرضٌ عما سوى الله الأحدْ يضع السكين في حلق الولَدْ
واحدٌ من نفسه في عسكرِ يبذلُ الروحَ بيوم الخطرِ[٦٧].

التراب والطين:

يستخدم الشاعر بالأصل الفارسي لديوانه كلمتي (خاك) و(كل) وكلمة كل بكسر الكاف التي تنطق كالجيم المصرية (گ)... و(خاك) بالفارسية (تراب) و(كل) (گ) تعني (طين)، وفي الترجمة العربية التي بين يدي وجدتُ أن المترجم لم يلتزم حرفياً بترجمة هاتين الكلمتين، فمرة يترجم خاك بمعنى طين ومرة بمعنى تراب، وكل (گ)كذلك، ولعله اضطر لذلك لضرورة الشعر، ولكن كان عليّ أن أسجل هذه النقطة هنا قبل البدء في ذكر الأشعار التي استخدم الشاعر فيها رمز التراب والطين، وأنا هنا سألتزم بقبول المعنيين للفظين بدون تعيين.

يقول الشاعر تحت عنوان "في بيان أن الذات تستحكم بالمحبة والعشق":

نقط النور التي تُدعى الذواتْ شرر في طيننا للحَيَواتْ
مُشعَل بالحب منها الجوهرُ يتجلّى من قواها المضمر

٦٦- المصدر نفسه، ص ١٥٣.
٦٧- المصدر نفسه، ص ٣٩-٤٠.

قطـــرةٌ بالعشـــق تُـــوعي ضرَمـــا وهـــي بالعشـــق تُنـــير العالَـــا
لايهـاب العشـقُ في السـيف المَضـاءْ لـيس مـن مـاء وتـرب وهـواءْ
هـو في العـالم صـلح وخصـامْ للحيـاة المـاء مـن هـذا الحسـام
نظـرة العشـق بهـا شَـقُّ الصـخور هـو عشـقُ الحـق، والحـقَّ يصـير
فـابغ في طينـك هـذي الكيميـاءْ اقبِسَـنْ مـن كامـلٍ هـذا الضـياء
امـض كـالروميّ شـمعاً يشـتعل وارم مـن تبريـز في الـروم الشُّـعَل
إن في قلبـك معشـوقاً ثـوى أقْـبلَن أنبئْـك عـن هـذا الجَـوى
عاشـقوه قـد شَـأوْا كـل جميـل حـبهم في كـل قلـب لا يَحـولْ
عشـقُه في القلـب نـورٌ أسـفرا للثريـا يرتقـي منـه الثـرى
تُـربُ نجـدٍ منـه قـد خـفَّ وضـاء طـار وجـداً مُصـعداً نحـو السـماء[٦٨].

في هذه القصيدة يوظف الشاعر رمز الطين أعمق توظيف، فمن عنوان هذه القصيدة يتبين أن الشاعر يرى أن علو الذات واستحكامها يكون بالمحبة والعشق اللذين يعلو بهما الإنسان عن الحيوانية والدونية فيه، ولم أجد أبياتاً في ديوانه هذا كله يتركز فيها ذكر رمز واحد مثلما حدث في هذه الأبيات، فقد ذكر هذا الرمز خمس مرات في اثني عشر بيتاً، وجاء هذا الرمز بهذه الألفاظ "طيننا، ماء وترب، طينك، الثرى، ترب نجد" وبالفارسية : "خاك، خاك، كِلي (گ)، خاك، خاك نجد"[٦٩].

٦٨- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص١٨-١٩.

٦٩- الأصل الفارسي للأبيات هو:

نقطۂ نوری کہ نام او خودی است زیر خاک ما شرار زندگی است
عشق را نہ تیغ و خنجر باک نیست اصلِ عشق از آب و باد و خاک نیست
کیمیا پیدا کن از مشت گلی بوسہ زن بر آستان کاملی
دل ز عشقِ او توانا می شود خاک ہمدوشِ ثُریّا می شود
خاک نجد از فیض او جالاک شد آمد اندر وجد و بر افلاک شد.

انظر: محمد إقبال، **كليات اقبال لاهوري**، بتقديم: علي شريعتي وجاويد إقبال، (طهران: انتشارات الهام، ١٣٨٤هـ) ص ٤٤.

وهذا تكثيف يستحق التوقف عنده ملياً لنستطيع الإلمام بالمعاني العظيمة التي تنطوي تحت هذا الرمز ولنستطيع تلقي رسالة الشاعر التي يريدها لنا، فهنا النور هو شرر في طيننا، يرفع من شأن طيننا ليهبه الحياة الحقيقة حياة العشق، وهذا العشق في بيت تالٍ لا يهاب مضاء السيف لأن هذا العشق ليس عشق ماء وترب وهواء، ثم في بيت لاحق يقول هو عشق الحق، ويخاطب الشاعرُ المسلمَ بقوله : ابغ في طينك هذي الكيمياء... ويطلب منه أن يمضي كجلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي ينشر العشق، فهذا العشق هو الذي سيرتقي بالثرى "أي الجانب الدنيوي فيك" للثريا... وترب نجد هو مثال حي لهذا العشق برأي إقبال، فهو قد خف "فارتفع عن دونيته" وضاء "فأنار ما حوله". فهنا ترب نجد وبعد عدة أبيات يذكر ترب يثرب فيقول:

قد شأى الدارَين من يثرب طِيبْ حبذا دار بها مثوى الحبيب!

وفي هذه الترجمة أغفل الدكتور عبد الوهاب عزام لفظ تراب، والأصل الفارسي:

خاكِ يثرب از دو عالم خوشتر است ای خُنُك شهری كه آنجا دلبراست[٧٠].

وفي حقيقة الشعر وإصلاح الآداب الإسلامية يقول الشاعر:

حرقة الإنسان من كور الأملْ نار هذا الطين من نور الأمل.

وفي قصيدة أخرى يقول على لسان الشيخ علي الهجويري[٧١] مخاطباً من جاء من مرو يشكو بغي أعدائه فيقول له:

أيها الغافل عن سر الحياهْ لا يَميزُ الخيرَ من شر الحياهْ.

ثم يقول :

٧٠- **كليات اقبال**، ص٤٥.

٧١- من كبار المتصوفة، صاحب كتاب **كشف المحجوب لأرباب القلوب**، انظر: الهامش في ديوان **الأسرار والرموز**، ص٤٦.

كـــم تـــرى نفســـك طينـــاً قـــد حُقِـــر شـــعلةَ الطـــور مـــن الطـــين أثِـــرْ[٧٢].

وهذا البيت قد سبق لنا ذكره في معرض حديثنا عن رمز الطور[٧٣] والشاعر هنا يرسم صورة تثري خيالنا برموز ثلاثة : شعلة، وطور، وطين، تتضافر معاً لتبعث الحياة في هذه الأمة الراكدة كما هو هدف الشاعر الأول بل والأوحد.

ويشبهه بيت آخر يصف فيه الشاعر عمل النبوة فيقول:

يهـــب النـــاسَ جديـــد النظـــر يجعـــل البيـــدَ كـــروضٍ نضـــرِ
فـــترى الأمـــة منـــه ســـائره بلهيـــب منـــه حَـــرّى ثـــائره
شرراً في قلبهـــا قـــد أشـــعلا فأحـــال الطـــين فيهـــا شُـــعَلا
ســـيره يعطـــي الـــتراب البـــصرا فـــإذا الـــذّرة ســـيناءَ تـــرى[٧٤].

وهو يدعو للرفعة والعلو عن جذب التراب الأرضي الدوني فيقول:

حلِّقَنْ في اللوح عن جذب التراب من هُويّ لاتخف، مثل العقابْ[٧٥].

ويوضح لنا السبيل لهذا السمو والرفعة وهو أولاً في اتباع القرآن في قوله :

وحـــدةُ الشـــرع حيـــاةُ الأمـــة فمـــن القـــرآن روح الملّـــة
نحـــن طـــينٌ وهـــو قلـــب لاجَـــرَمْ هـــو "حبـــل الله" مـــن شـــاء اعتصـــم
فـــانتظم في ســـلكه كالـــدررِ أو غبـــاراً في الريـــاح انتشـــرِ[٧٦].

وعلى لسان والد إقبال فيما يتعلق بتعليم ابنه القرآن الكريم يقول الشاعر:

٧٢- المصدر نفسه، ص٤٧.
٧٣- انظر: ص٧.
٧٤- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص ٨٦.
٧٥- المصدر نفسه، ص ٥٨.
٧٦- المصدر نفسه، ص١١٥.

أيهـــا الحـــائر في ذا الموكـــب! مـــا جـــوابي حـــين يلحـــاني النبـــي:
"قـــد حبـــاك الحـــق طفـــلا مســـلما لم تُنلْـــه مـــن كتـــابي مغـــنما
هـــيّن الأشـــياء قـــد شـــقّ عليـــك لم يَصـــرِْ ذا الطـــينُ إنســـاناً لـــديك"[٧٧]

فبقي الطين طيناً حين لم يتعلق بسبب للقرآن الكريم.

وثانياً في العمل فهو يقول تحت عنوان "في بيان أن توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم":

مؤمنـــاً بالغيـــب غـــير الغافـــل! كارهـــاً كالســـيل قيـــدَ الســـاحل !
اعـــلُ عـــن ذا الطـــين غصـــناً نـــاضراً وصِـــلِ الغائـــبَ واغـــز الحـــاضرا
ذلـــك الحـــاضر تفســـير الغيـــوبْ وهـــو مفتـــاح لتســـخير الغُيـــوبْ[٧٨].

ويقول :

يـــا أخـــا الـــوردة كـــن صـــنوَ الحجـــرْ وكـــن الســـورَ لبســـتان الزهـــر
آدميّـــاً صـــوّرن مـــن تُربكـــا ثـــم شـــيِّد عالَمـــاً بِـــدعاً لكـــا
أنـــت إن كنـــت ترابـــاً هيّنـــا فليصُـــغ غـــيرُك منـــك اللبنـــا[٧٩].

والتراب بقبول الحق واتباعه يتحول إلى خير عميم غير محدود:

يرتقـــي في ظلـــه المتضِـــعُ ويصـــير الـــتُّربُ تِـــبْراً يَســـطع[٨٠].

ويقول:

قـــد غرســـنا الـــدين في أرض القلـــوب وجلونـــا الحـــق مـــن ســـتر الغيـــوبْ

٧٧- المصدر نفسه، ص١١٩.
٧٨- المصدر نفسه، ص١٢٩.
٧٩- المصدر نفسه، ص٤٣.
٨٠- المصدر نفسه، ص٨٧.

ومـــن الـــدنيا حللنـــا العُقَـــدا واســـتنار الـــتُّربُ منّـــا سُـــجَّدا[٨١].

والتوحيد يجعل الطين سنبلا وضوءً له لمعان:

ثـــم في طينـــك إيمانـــاً بـــذر كلمـــة التوحيـــد مـــن فيـــك نَشـــرْ.

وبعد أبيات عدة يقول :

نفحهـــا صـــيّر طينـــاً ســـنبلا وَجـــدُها صـــيّر ريشـــاً بلـــبلا

في عـــروق الكـــرم منهـــا شُـــعلة وبطـــين الكـــأس منهـــا لمعـــة[٨٢].

ويكون نوراً:

إن في طـــين نـــوراً قـــد بـــدا بشـــعاع منـــه أبـــصرتَ الهـــدى[٨٣].

وقد يصير الطين بشراً:

نفـــسٌ منـــك أطـــار الشـــررا فاســـتحال الطـــين منـــه بشـــرا[٨٤].

وذلك حين يلامس الطين فينا شرر الرسالة المحمدية. ويشبه هذا المعنى قوله:

أنَّـــةٌ للعشـــق تُفـــشي سرّهُ آهـــةٌ في العشـــق تُـــذكي جمـــرهُ

تجعـــل العصـــفَ لهيبـــاً يُحـــرقُ وفَراشـــاً مـــن تـــراب تَخلُـــقُ

في ضـــمير العشـــق وَسْـــمٌ كالشَـــقِرْ ولـــــه وردةُ وجـــــدٍ تســـــتعرْ

هـــذه الـــوردة أحبُـــو صَـــدركِ في سُـــباتٍ منـــك أُذكـــي حشـــرَكِ

لأرى في تُربـــكَ الـــروض الينيـــعْ وبأنفاســـكِ أرواحَ الربيـــعْ[٨٥].

٨١- المصدر نفسه، ص٦٦.

٨٢- المصدر نفسه، ص ١٢٧.

٨٣- المصدر نفسه، ص ٨٣.

٨٤- المصدر نفسه، ص ١٥٠.

٨٥- المصدر نفسه، ص ٨٠.

لكن الشاعر يحذرنا من أن هذا الطين مع إمكانية أن يستحيل كما ذكرنا لكل هذه الأشياء الإيجابية المثمرة إلا أنه قد يحصل العكس بسبب بعده عن منبع الحياة الحقيقة، أو بسبب إهمال الإنسان وعدم قيامه بمسؤولياته، فيقول تحت عنوان "في بيان أن حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها":

إنما يُبقي الحياة المقصِدُ ... جَرَسٌ في ركبها ما تَقصد
سِرُّ عيشٍ في طِلابٍ مُضمَر ... أصلُه في أمل مستترُ
أحي في قلبك هذا الأملا ... لا يَحُلْ طينُك قبراً مُهمَلا
يخفق القلب به بين الصدورْ ... هو في صدرك مرآة تُنير
يَهَبُ الترابَ جناحاً يَصعَد ... ولموسى العقل خِضراً يُرْشِد[٨٦].

ويقول تحت عنوان "الوقت سيف":

نكتةً كالدر خذها رائقة ... بين حرّ ورقيقٍ فارقه:
حيرةُ العبد مسيرُ الزمنِ ... حيرةُ الأزمان قلبُ المؤمن
ينسج العبدُ عليه كفنا ... من صباحٍ ومساءٍ مُذعنا
وترى الحرّ من الطين نجا ... نفسه حول الليالي نسجا[٨٧].

وخلاصة رمزية الطين في رؤية الشاعر هي في قوله:

إنما صوّرتَ من طينٍ لَزبْ ... سيط في أمشاجه خوف وحبّ:
خيفةُ الدنيا وخوفُ الآخره ... خوف موتٍ ورزايا فاقره
حبّ جاه وثراءٍ وبلدْ ... حبّ زوج وقريب وولدْ

٨٦- المصدر نفسه، ص١٦.
٨٧- المصدر نفسه، ص٦٥.

مـــن مـــزاج الطـــين والمـــاء البـــدن مَركـــبُ الأهـــواء، مَغلـــوبُ الفـــتَن
مـــن يمسّـــك بعصـــاً مـــن "لا إلـــه" فلـــتحطّم طِلْســـم الخـــوف يـــداه
كـــلُّ مَـــن بـــالحق أحيـــا نفســـهُ لا تـــرى الباطـــلَ يُحنـــي رأسَـــهُ[٨٨].

وحين يتخلى المرء عن هذه المخاوف ويستغني بتوحيده وقرآنه فيسمو بنفسه ويكرمها ويعلي شأنها وذلك في قوله تحت عنوان "في بيان أن الذات تضعف بالسؤال":

مرحبـــاً بالظـــامئ الضـــحيانِ لا يســـأل الخِضْـــر شرابـــاً في الفـــلا[٨٩].
بســـؤال النـــاس لم يُنـــد الجبـــينْ ذاكـــم الإنســـان، لا مـــاء وطـــين
تحـــت هـــذي الشـــمس يمضي ذا الفتـــى عـــاليَ الـــرأس كـــسَرْو قـــد عتـــا[٩٠].

الخاتمة:

تناولتُ في هذا البحث معنى الرمز وخصائصه ومصادره ووظائفه، ثم انتقلت إلى الرمز بارتباطه بالدين والموروث الديني وما يتعلق بفلسفة الشاعر إقبال وتوظيفه للرمز الديني في أشعاره، وجمعت من أشعاره في **ديوان الأسرار والرموز** ما يمتّ بصلة لهذا الموضوع، وتبين لي في خاتمة هذا البحث أن الشاعر وضع نصب عينيه هدفاً واحداً وجّه أشعاره كلها في هذا الديوان لتخدم هدفه ذاك وهو إحياء وبعث الأمة الإسلامية، وقد قام الشاعر كما رأينا في هذه الأشعار بتوظيف الرمز الديني متمثلاً بشخصيات دينية، أو جمادات ارتبطت بمعانٍ عميقة تتجذر في عقول المسلمين أينما كانوا ويشترك فيها كل مسلم مهما كان مبلغه من العلم، وكلما قرأنا هذه الأشعار ازدادت تلك المعاني شمولية وتوسعاً في مداركنا وفتحت لنا آفاقاً لا حدود لها، لنفخر بماضينا ونتطلع شوقاً لمستقبلنا

٨٨- المصدر نفسه، ص٣٩.

٨٩- يشير إلى زعم أن الخضر يملك ماء الحياة الذي يمنح شاربه الخلود في الدنيا، وقد سبقت الإشارة إليه في هذا البحث ص ١١.

٩٠- محمد إقبال، **الأسرار والرموز**، ص ٢٤.

بأمل وتفاؤل، فشخصية النبي موسى عليه السلام كانت مثالاً حياً ورمزاً للباعث لقومه المشفق عليهم، الذي جاء لإنقاذ قومه من استعباد فرعون لهم، ووظف كل ما وهبه الله ليساعده في الوصول إلى هدفه الأسمى، وكذلك النبي إبراهيم عليه السلام فهو مثال للمؤمن الحق الصامد الثابت على الحق مهما تكاثرت عليه المصاعب والعوائق والابتلاءات، وتناولنا تبعاً لذلك رموزاً وظفها الشاعر ببراعته لتخدم هذين الرمزين وهي العصا والطور وسيناء وكف موسى الضاربة... ونار إبراهيم وسكينه وكفه الضاربة لتحطيم الأوثان... ومن الرموز التي استندت على شخصيات أخرى هناك فرعون رمز الظلم والاستبداد والتأله، وآزر رمز الداعي لعبادة غير الله والصد عن سبيل الله ... ثم انتقلتُ في الشق الأخير من هذا البحث لرمز يوظفه الشاعر بمهارة فائقة وهو الطين أو التراب الذي هو أصل الإنسان وعند الشاعر كما رأينا هو رمز لدنيوية الإنسان ودونيته والجانب الذي يشده إلى السفل والأرض ويمنعه من العلو والرفعة والتحليق في السماء.

وفي هذا البحث وجدتُ أن المصدر الأساسي لرموز الشاعر هو القرآن الكريم، فقد استقى الشاعر رموزه من القرآن الكريم وأسقطها على واقع الأمة الإسلامية التي ترزح تحت الجهل والتكاسل والتخلف منذ أمد بعيد ووظفها ليحيي بها الموات ويوقظ فيها النيام، ولعل كلماته تترك ما أراد لها من أثر.